

مكانة الأخلاق في الإسلام

حديثه محمد الصغير الجمعة ١٢ محرم ١٤٤٣

لا يختلف اثنان على أهمية الأخلاق ومكانتها العظيمة في الإسلام، ولكن في نفس الوقت عند البحث لا نجد تلك المكانة العظيمة محدد بشكل واضح.

بمعنى لا نجد دور الأخلاق في الإسلام، كما نجد دور أركان الإسلام، لذلك رأيت أنه من الضروري تحديد تلك المكانة العظيمة للأخلاق بأدلة ملموسة مفصلة غير مبهم.

ولقد هداني ربي إلى تحديد تلك المكانة العظيمة للأخلاق من خلال تدبر مجموعة من الآيات التي تتحدث عن مكانة الأخلاق عمليا والتي سوف أناقشها من خلال المحاور التالية

- مكانة الأخلاق في الإسلام
- الجانب التعبدية في الأخلاق
- أهمية الأخلاق في الدعوة
- كيف فسدت أخلاق الأمة

مكانة الأخلاق في الإسلام

في الحقيقة نظرا للطبيعة الأكاديمية لدراسة الإسلام، فإن جل التركيز يكون على مسألة التوحيد بصفتها القضية الأبرز والأهم في الإسلام، لدرجة أن موضوع الأخلاق في الإسلام صار ترفاً فكرياً بالنسبة لكثير من مدعي التوحيد، فالتوحيد هو بحسب منهج تعلمهم للدين الإسلامي، القضية الأهم التي تعبر عن جوهر الإسلام والتي هي منفصلة كلياً عن الأخلاق.

عند العودة إلى المنهج الرباني الذي علم به رسول الله ﷺ الصحابة الإسلام، نجد أمراً مغايراً تماماً، حيث نجد الترابط الوثيق بين الأخلاق الإسلامية، والتوحيد، لدرجة الانصهار التام

فالمسلم لله إنما يُعْبَرُ عنه في الوحي بأخلاقه الإسلامية الحسنة، وكذلك الكافر يعبر عنه غالباً بأخلاقه السيئة التي يتصف بها، والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله سبحانه واصفا الكفار:

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُفْضِلِينَ ۖ وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۖ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۖ وَكُنَّا نُكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾

لاحظ كيف جعل من صفاتهم عدم إطعام المسكين، الذي هو في الأساس خلق، وليس معتقد بالمعنى الأكاديمي للمعتقدات، سببا في دخولهم النار، يعدونه مع الكفر بيوم الدين، حيث أنهم قدموا ذكر الأخلاق السيئة التي كانت عندهم، على الكفر بدين الإسلام

كذلك نجد ربنا يأمر نبيه بعدم طاعة الكافر واصفا الكافر بأسوء الأخلاق حيث قال:

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾

القلم ١٠-١٣

كل هذه أوصاف خلقية بحتة، ومع ذلك هي مرتبطة ترابطا جذريا بالمعتقد الكفري الذي يناقض الإسلام، بمعنى أن هذه الأخلاق السيئة هي التجلي الظاهر لذلك المعتقد المعاند لحاملها الذي يخبرنا عنه ربنا في قوله:

﴿ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

القلم ١٥

نفس الأسلوب السابق، أي نعت الكافر بأخلاقه السيئة وترتيب العذاب عليها، نجده في قوله سبحانه:

﴿ وَيُلْكَئُ كُلُّ مُهْمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾

الهمزة ١-٢

فهذه أخلاق من لا يؤمن بالموت والنشور، حيث أخبرنا عن هذا الدافع لهذه الأخلاق السيئة في قوله:

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾

الهمزة ٣

مثال الآخر يثبت التطابق بين سوء الأخلاق والكفر، وهو قوله:

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يُخْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۖ ﴾

الماعون ٧-١

فالتكذيب بالدين الذي هو معتقد كفري، يترجم عمليا بدفع الأيتام، وظلمهم، وعدم الحظ على طعام المسكين، التي هي أخلاق، كذلك انقطاع الصلة مع الله تترجم عمليا بالرياء ومنع الماعون.

في المقابل عند الحديث عن الإسلام وصفات المسلمين نجد في الكتاب والسنة أن الإسلام إنما يتجلى في حسن الأخلاق، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه:

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

ففي هذا الحديث يستخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أداة الحصر والتوكيد "إنما" ليثبت أن الإسلام الذي جاء به إنما هو مكارم الأخلاق.

وهذا ربنا يتحدث عن صفات المتقين الذين أعد لهم مغفرة وجنة عرضها السموات والأرض فيقول:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۖ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۖ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ۖ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۖ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۖ ﴾

آل عمران ١٣٣-١٣٦

فأهل الإسلام المتقين هم الذين يتصفون بهذه الأخلاق:

- خلق الإنفاق على الخلق
- خلق الحلم والتمثل في كظم الغيظ
- خلق العفو عن الناس
- خلق التواضع لله والإنابة إليه سبحانه

ولو تتبعنا القرآن والسنة، لوجدنا أن الإسلام لم يترك خلقا حسنا إلا حظ عليه وأمر به، وكان الإسلام يتجلى فيه، ولم يترك خلقا سيئا إلا حذر منه، وكان منافيا لحقيقة الإسلام.

قبل أن أختتم الأمثلة التي في الحقيقة يصعب حصرها نظرا لكونها جُل الوحي، نأخذ المثال التالي الذي يعكس أن الأخلاق هي التجلي العملي لمعتقد الشخص، فإن كان مؤمنا كانت أخلاقه حسنة وإن كان كافرا كان أخلاقه سيئة، إنه قل الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۖ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ

الليل ١٠-٤

والآيات صريحة وواضحة في الترابط بين الإيمان بالآخرة والإنفاق والعكس صحيح أي الترابط بين الكفر بالآخرة والبخل.

أي أنه لا إيمان صحيح إلا مع خلق حسن يتجلى فيه، فلا يمكن أن يكون المرء مؤمنا وهو سيء الخلق كما يتصور البعض.

الجانب التعبدى في الأخلاق

الأخلاق في الإسلام ليست مجرد صفات حسنة يتصف بها المرء، وإنما هي أوامر ربانية يطيعها المرء رجاء رضوانه سبحانه وخوفا من عذابه، أي أنها عبادة يُتعبد الله بها، ولذلك هي تعكس الإيمان الصحيح الذي ينجي صاحبه من عذاب الله

من الأدلة الكثيرة على الجانب التعبدى في الأخلاق قوله سبحانه حاكيا عن المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۖ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۖ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۖ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَخَرِيرًا ۖ

الإنسان ٩-١٢

وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۖ

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على وجوب الأخلاق الحسنة نظرا لأمر الله بها والترغيب فيها بالمغفرة والأجر العظيم.

أهمية الأخلاق في الدعوة

عند دراستنا لخطوات الحبيب صلى الله عليه وسلم في تكوين جماعة للمسلمين وجدنا أن أخلاقه صلى الله عليه وسلم الحسنة -وكلها حسنة- كان لها التأثير البالغ في قبول دعوته إلى الإسلام، فقريش قد علمت من صدقه وأمانته ما يجعلهم واثقين أنه صلى الله عليه وسلم ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله ومن ثم فهو بلا شك صادق في كونه رسول الله أرسله بدين الإسلام.

إن أخلاق الداعية هي أبغ وسيلة للدعوة، لأنها خير برهان على صدق دعوة الداعي، وهذا قد نص عليه شعيب عليه السلام مخاطبا قومه:

«قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»

[هود: ٨٨]

فإذا رأى الناس الأخلاق الحسنة للداعية أقبلوا على الإسلام حتى قبل أن يكلمهم، وهذا ما حدث بالفعل مع دول شرق آسيا، فماليزيا وأندونيسيا وغيرها من الدول إنما دخلهم الإسلام بسبب أخلاق التجار المسلمين التي كانت تعكس دينهم

لذلك يمكن القول بأنه لا غنى للدعوة عن الأخلاق الحسنة

كيف فسدت أخلاق الأمة

رأينا فيما أن الأخلاق الحسنة هي الإسلام، لذلك عند ضياع الإسلام بسبب الابتعاد عن الوحي ضاعت الأخلاق، ولا عجب في ذلك فحين يترك الوحي جانبا فإن الدين كله يضيع.

للأسف حتى عندما يحاول البعض الرجوع إلى الدين فإنه لا يتعلمه من الوحي بالأسلوب الرباني الذي رأينا كيف يبرز الأخلاق في الإيمان، وإنما يتعلمه كمسائل منفردة وشعائر، وهكذا تظل الأخلاق الحسنة في مجال الكمال لا الضروري ومن ثم لا تجد الاهتمام اللازم بها منجلي عملي لهذا الدين.